

أضواء على الأدب السوفياتي في الحرب

بقلم الدكتور محمد عبد ريس

في آلة الدولة ، وان ليس هناك أشخاص غير « قابلين للاستبدال » .

على ان المراقب يلاحظ اليوم ان نزعة رد كل نقص او سوء في الانتاج الادبي الى ظاهرة عبادة الشخصية اصبح مبالغا فيها بشكل يدعو الى الحذر . فانا لم أستطع ان أفهم مثلا ما قاله لي يوري نجيبين (1) حين لقيناه في دارته بضاحية موسكو من ان عهد ستالين لم يكن يشجع تأليف القصة القصيرة ونشرها ، بعكس العهد الحالي ! .

ثم ان الخوف من اداة الاتار الادبية في ذلك العهد ، وبالتالي ضرورة اسقاط فترة برمتها من تاريخ الادب السوفياتي الحديث ، جعل بعض النقاد يحذرون من اطلاق الاحكام السلبية العامة . وهكذا نسمع ناقدا كنيقولاوي غايي يقول « ان النزعة الانسانية لم تختف قط من الحياة ومن الادب في تلك الفترة ، بل ان هذا الموضوع قد اكتسب صوتا اقوى في أفضل أنتاج الكتاب السوفيات من مثل « الدون الهاديء » لسولوخوف » . وأشعار ايفان انيسيموف الى هذا الموضوع ، فقال وهو يتحدث عن عهد عبادة الفرد ان علينا ان نعيد النظر في قيمة سلسلة من المؤلفات ، ولكن لا ينبغي لنا ان «نضرب عرض الحائط» بمجموع الادب السوفياتي . ان الادب لم يصدر عن عبادة الفرد ، بل هو قد انجز أثرا رفيعا معقدا ، وكان الشعب يعبر فيه عن نفسه » .

ومع ذلك ، فهل نجا الاديب السوفياتي ، في عهد خروتشوف الحالي ، مما كان يشكو منه من ضغط وارهاب في عهد ستالين ؟ هذا ما سوف نعرض له حين نتحدث عن الاديب السوفياتي والدولة .

1 - مذهب الواقعية الاشتراكية

ما تزال الواقعية الاشتراكية مذهب الدولة الرسمي في الانتاج الادبي والفني العام . ويطلب هذا المذهب تصوير الواقع تصويرا تاريخيا حسيبا في تطوره الثوري وفي تغيير البشر ايدولوجيا على صعيد الاشتراكية .

وعماد الواقعية الاشتراكية هو قبل كل شيء التصوير الفني لبطل جديد ، كان مجهولا في الماضي ، هو الجموع الشعبية التي ايقظتها الثورة وجندتها لاستخراج الدور التاريخي الذي يمثله الناس العاديون البسطاء ، الذين هم « اسياة الحياة الحقيقيون » كما يقول غوركي .

وقد عبر غوركي عن النزعات العامة التي أشار اليها لينين عام 1905 حين تحدث عن الواقعية الاشتراكية . وكان غوركي اول من ادخل في الادب نموذجا جديدا

(1) من اشهر كتاب القصة القصيرة المعاصرين ، وهو زوج الشاعرة المعروفة بيللا اخموليننا .

لا شك في اننا مقصرون جدا في الاطلاع على الادب السوفياتي الحديث ، وفي اطلاع القراء العرب عليه . هذا هو التسعور الذي داخلني منذ بدات زيارتي للاتحاد السوفياتي ، في مطلع الشهر الماضي ، بدعوة من اتحاد الادباء السوفيات .

ولقد أحسست كذلك اننا لم ننجح دائما في ان نكون موضوعيين في هذه المجلة ، حين كنا نتحدث عن الادب السوفياتي ، لاننا كنا غالبا ما نعتمد في هذا الحديث على المصادر الغربية التي كانت هي نفسها ، في احيان كثيرة ، ذات اغراض معينة .

غير اننا مع ذلك لم نمتنع عن مصارحة الذين لقيناهم من الادباء السوفيات باننا لا نستطيع دائما ان نعتمد على المصادر السوفياتية ، لانها كثيرا ما تغلف اقوالها بغلاف الدعاية .

وعلى هذا يكون السلوك الموضوعي الحقيقي ، هو ان نورد الحديث عن هذا الادب ، وعن ادب كل بلد آخر ، في سرد مجرد ، ثم نبدي رأينا او اجتهادنا فيه ، بالرغم مما يكتنف ذلك من صعوبات .

وانطلاقا من هذا المبدأ ، ركزت اهتمامي على دراسة الوضع الادبي في الاتحاد السوفياتي ، مضحيا احيانا بفضول زياره معالم الحياة والاطلاع على الانجازات التي حققتها الاشتراكية .

ولقد قابلنا عددا من الادباء والنقاد ، وزرنا كبريات الصحف الادبية ، الاسبوعية والشهرية ، وتحدثنا الى المشرفين عليها ، سائلين ومجيبين ، وقرأنا بعض الدراسات ، وأطلعنا على مناقشات كثيرة قامت بين الادباء السوفيات في مؤتمراتهم ومجلاتهم .

وبالرغم من ان ذلك كله لا يمكن ان يعتبر امدخلا الى دراسة الادب السوفياتي ، فقد أتاح لنا ان نقف على القضايا التي تهتم الادباء والمثقفين ، وعلى الموضوعات التي يعالجونها ، وعلى النتاج الذي يصدرونه .

✱

ولكن لا بد لنا ، قبل ان نلقي الاضواء على الادب السوفياتي الحديث ونستعرض ملامحه ، من ان نشير الى ظاهرة بارزة كانت تطالعنا في كل موضوع نثيره تقريبا ، وهي التأكيد على ان « عبادة الفرد » في عهد ستالين كانت سببا رئيسيا في كل نقص عاناه الادب السوفياتي ، وفي كل نقد يوجه اليه . .

لقد كان مضيقا على الادباء والفنانين تضيقا شديدا ، وكان زبانية جدانوف يمارسون على الفكر ارهابا عنيفا يدفع المفكرين الى الصمت والانزواء ، والى التخلي عن الانتاج في كثير من الاحيان . وقد عرف الادب سلسلة من الاثار ألفت بسرعة لتمجيد ستالين . وفي تلك المرحلة ، كانت السلطات تشجع ان الانسان ليس الا « برغيا » صغيرا

يسر ((الأداب)) ان تعلن ان عددها السنوي الممتاز سيكون في العام القادم خاصا بـ

فلسطين

فلسطين : الارض المقدسة التي يستعد العرب اليوم ، في جميع اقطارهم ، لاسترجاعها من الصهيونية المقتنصة ، والتي طبعت النتاج الادبي ، في السنوات الخمس عشرة الماضية ، بطابعها المأساوي العنيف .

و ((الأداب)) تدعو ادباء العربية ، من دارسين وقصاصين وشعراء ، الى المشاركة في تحرير هذا العدد الضخم الذي سيصدر في مطلع اذار (مارس) القادم ١٩٦٤ .

يكتب مستجيبا لامر قلبه ، وقلوبنا هي ملك الحزب والشعب الذي نخدمه بفننا .

والواقع ان حرية الخلق الفني في الاتحاد السوفياتي مرتبطة ومتكيفة بالحياة الاجتماعية وبمصالح الشعب وتطبيق بناء المجتمع . فليس ثمة حرية مطلقة ، بل هناك حرية مسؤولة تستمد كل مبرراتها من خدمة المجتمع . ومن هنا كان الاعتقاد الجازم بانها ليس ثمة « تعاليم سلمية » ممكن بين الايديولوجيات .

٢ - النزعة الانسانية

لا ريب في ان سر الجاذبية التي نجدها في افضل الاثار الادبية العالمية انما يكمن قبل كل شيء في نزعتها الانسانية .

وهذه النزعة هي المطلب الرئيسي الذي ما فتىء الادب الروسي ينشده منذ قرون . وقد كان غوركي يقول: « ان الادب هو اكثر الفنون انسانية ، وبوسعنا ان نقول عن الادباء انهم انسانيون بالمهنة، منتجو النزعة الانسانية » . واهتمام الادباء السوفيات بهذه النزعة الى هذا الحد يجد تبريره الكافي في التغييرات التاريخية الكبيرة التي يشهدها العالم كله ، وفي الصراع العنيف ضد الخطر الذري الذي يهدد البشرية بالفناء ، وفي غزو الفضاء وتقدم العلم . . وهذا كله يدعو الى العودة بلا انقطاع الى موضوع مكان الانسان في العالم ، وعلاقاته بالمجتمع ، ومستقبله ومصيره .

- ١ -

ومهمة الادب الاشتراكي ، كما يفهمها الادباء المعاصرون السوفيات ، هي ان يكون ينبوع فرح والهام للملايين البشر ، وان يعبر عن ارادتهم ومشاعرهم وافكارهم ، وان يعني رؤيتهم للعالم ، وان يريهم ويثقفهم . ولئن كان النقد الغربي يأخذ على النتاج السوفياتي، قديمه وحديثه ، نزعة « اللاشخصية » في ابطال

للشخصية الايجابية ، وقال عنه لينين انه اكبر ممثل للفكر البروليتاري .

ولم يكن غوركي هو الوحيد . فان انتاج سيرافيموفيتش وفورمانوف وبدني وماياكوفسكي يثبت ميلاد موقف جديد للفن ازاء الواقع ، واكتشاف سلسلة جديدة من نماذج الابطال والاحداث واقتراح تقدير ايديولوجي جديد لهذه الانطال والاحداث .

ومن ابرز الامثلة على آثار الواقعية الاشتراكية مؤلفات شولوخوف ولا سيما « الدون الهادي » و « مصير انسان » و « الاراضي البكر » . و « آفاق بعيدة » لتفاردوفسكي و « الانسان » لميازليتيشس و « جميلة » لايتمانوف وأشعار خزانوف و « حقيبة ملاي بالقلوب » لفيدورف ، و « محكمة الذاكرة » لاسايف .

والغاية الرئيسية للواقعية الاشتراكية هي ، على حد قول ليونيد ايليتشيف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، « الصراع العنيف من اجل انتصار المجتمع الاوفر انسانية وعدالة على الارض، انتصار الشيوعية » (١) .

والطابع المميز للواقعية الاشتراكية هو الرؤية التاريخية وتحليل جميع ظواهر الحياة ، سواء ما يتعلق منها بالتطورات الاقتصادية او باسرار النفسية الانسانية . فالتحليل الاجتماعي هو الذي يتيح رؤية الحياة في تناقضاتها الحقيقية وجعل ظواهرها وشخصياتها نموذجية .

من هنا كانت وحدة العمل والهدف بين الحزب الشيوعي والادب السوفياتي . وقد فتح هذا مجالا للانتقاد بان الادباء السوفيات لا يكتبون الا بأمر او بايحاء من الحزب . وقد رد شولوخوف على هذا الانتقاد ردا يخيل للقارئ ان فيه نغيا للفكرة ، ولكن فيه في الحقيقة تأييدا لها ، فقال : « ان هذا غير صحيح . ان كلامنا

(١) انظر الخطاب الذي لقيه في ١٧ ديسمبر ١٩٦٢ أثناء اجتماع

قادة الحزب والحكومة بممثلي الادب والفن .

الروايات خاصة (كما نرى لدى ايفان كاراتاين في «الحرب والسلام» لتولستوي . ولدى زوسيماء العجوز في رواية « الاخوة كارامازوف » لدستوفسكي ، ولدى سونيسا مارميلادوفا في « الجريمة والعقاب » لدستوفسكي ايضا) فان النقد السوفياتي يأخذ على النتاج الغربي - الذي يعنقه بالبورجوازي - انه يعزل الخلق الفني عن المشكلات الانسانية الكبرى . بل هو يوكد بعناد انه من غير الممكن تغيير الطبيعة البشرية الخاضعة لنفوذ الفسائر التي لا يمكن ضبطها . ان النظرية الغربية ، في بعض جوانبها ، ترى في الدعوة الى تفتيت الشخصية ، والى تحريير الفن من « جذوره البشرية » كل التقدم الفني ، بل المظهر الاكمل لجوهر هذا الفن الذي ليس هو في تناول الجماهير .

ونرى النقاد السوفيات المحدثين يعنون عناية خاصة بالرد على النقد الغربي الذي يوجه الى النتاج السوفياتي ، ويوضحون المفاهيم التي يؤمنون بها والتي تكشف عن رؤية خاصة للنزعة الانسانية . من ذلك ما رد به الناقد فلاديمير ارميلوف في مؤتمر ادبي عقد في موسكو في العام الماضي (1) فقال :

« ان الشخصية ، بل مبدأ الفرد نفسه ، لم يلق في اي ادب توكيدا حرا كالذي لقيه في الادب السوفياتي الذي يعتقد ان كل فرد يمثل علما بذاته ، لانه قادر على ان يمتص العالم كله ويحمل اليه شيئا جديدا خاصا به . والواقع ان الدفاع عن الشخصية في الادب الروسي كان دفاعا عن الشعب في الوقت نفسه : فمير وضع الفرد تمكن رؤية وضع الشعب في ظروف اجتماعية معينة . فتولستوي يعرض مثلا أعلى لوحدة البشر وينسبه في وجه الفصل البورجوازي ، وهو في فنه يؤكد الشخصية ومبدأ الفرد ويعرض الانسان كوحدة تستخدم لقياس كل شيء . وانسجام الشخصية مع العالم هو معنى جميع الاماني الروحية لابطال « الحرب والسلام » ، وفي « انا كارينا » بيدو حلم « القضية المشتركة » هو حلم السعادة الشخصية لكل انسان . فمن غير القضية المشتركة لا يستطيع الانسان ان يحس نفسه ، ومن غيرها لا يمكن ان توجد سعادة ، وانما توجد حياة مضجرة ، عبثية ، يتلقاها الانسان تلقيا » .

ويضيف ارميلوف ان غوركي حين يؤكد ان « الحياة هي العمل » انما يحدد موقفه من الانسان ومن مصيره ، وهو يطالب على لسان العامل الميكانيكي « نيسل » في مسرحيته « البورجوازيون » بسعادة المرء في ان يصنع حياته ويغيرها ويخلق .

ويذهب الناقد فلاديمير ستشربينا الى ان وجهة نظر غوركي في الانسان الذي يعتبره جنديا مقاتلا وخالقا للعالم الجديد هي سمة الادب السوفياتي كله (1) . وبعد ان يستعرض بعض النظريات الغربية ، يحمل على مذهب « النقد الجديد » ، الشائع اليوم في الادب الاميركي فيقول :

« ان ممثلي هذه النزعة ، حسب رأي مالكولم كاوي ، يجهدون في « تصفية » الآثار الادبية بحذف كل ما يمكن نسبته الى « العناصر الغربية » . انهم يرفضون ان يأخذوا بعين الاعتبار حياة المؤلف ، ووسطه الاجتماعي ، وبصورة عامة الانسان الذين كانوا نماذج له والذين سيقروا ، ومعنى الاثر السياسي ، وفكرته الخلقية . وبعد عملية « التطهير » هذه لا تبقى الا « الكلمة العارية » التي ينبغي ان تكون وحدها موضوع

(1) راجع العدد 11 لعام 1962 من مجلة « اوغر أي اوبينيون »
œuvres et Opinions

(1) راجع مقاله عن الادب السوفياتي في مجلة « كولتور اي في »
Culture et Vie

دراسة الناقد . وهكذا يصبح الفن ، مفصولا عن كل محتوى انساني حقيقي واجتماعي ، هو الكشف الاخير للفكر الاستطريقي » .

وردا على ذلك يبين ستشربينا خطر حرمان الفن من جوهره الانساني وابعاد الانسان التاريخي الواقعي بكل المتسللات التي يطرحها ، ثم يدحض دعوى الاعضاء الايدولوجيين للنزعة الانسانية الاشتراكية حين يزعمون ان هذه النزعة تخلق صراعا لا مفر منه بين الانسان والمجتمع ، وتؤدي الى خنق الشخصية والى ابقاها حريتها . ويقول الناقد في ذلك : « انهم يفهمون الحرية الشخصية على طريقتهم ، انهم يرونها في معارضة الفرد بالمجموع » بينما يراها الفكر الاشتراكي الشيوعي في وحدة الفرد والمجتمع ، الانسان والانسانية « ومن المستحيل تحرير الشخصية بفصلها عن المجتمع » .

ويرى ستشربينا ان الكتاب الغربيين الذين يعارضون رومانتيكية رجل العمل بـ « بطولة اليأس » ويتحدثون عن التشكك ازاء الواقع والتشاؤم نحو التاريخ انما يصدرون عن مبدأ استحالة تغيير الحياة ويؤمنون بان من العبث الصراع . وهناك وجهة نظر واسعة الانتشار في الغرب وهي اننا دخلنا عصرا يجب على الفنان فيه ان يسبر غور عالمه الداخلي ويفر من كل ما هو اجتماعي ، ومعظم الحركات الادبية الحالية في اوربا واميركا تحاول ان تدفع الصراع بين الفرد والمجتمع الى ذروته ، وان تصنع منه نوعا من القانون العام لنمو الادب والفن . « اما الادب السوفياتي ، فهو يريد ان يجعل ممكنا كل الامكان اغناء الفرد الذي يحقق نفسه على قاعدة تدعيم صلات الانسان بالمجتمع . والمفهوم الايدولوجي والفني الافضل آثار الادب السوفياتي يتلخص بتمجيد وحدة الفرد والمجتمع . فعودة الانسان نحو شعبه هي المضمون الرئيسي لعدد كبير من الآثار المرموقة كتلائية الكسي تولستوي « درب الآلام » ورواية « سيباستبول » لالكسندر ماليشكين وروايات كونستنتين فادين : « الاخوة » و « الفرحة الاولى » و « سيف عظيم » وكتاب تفاردوزسكي « بلد مورافيا » . .

وهكذا ينزع الادب السوفياتي الحديث الى تصوير الانسان في تعدد العلاقات التي تربطه بالوسط والمجتمع والتاريخ ، لان نمو الشخصية واغنائها ليسا الا شيئا واحدا مع حركة العصر كله .

- ٢ -

ما هي القضايا الرئيسية التي يعالجها الادب السوفياتي الحديث في اطار النزعة الانسانية ؟
ان الاهتمام بكل ما يجري على الارض ، والشعور العالمي بالمسؤولية تجاه كل ما يحدث في الكون هما احد الموضوعات الكبرى للنتاج السوفياتي .
يقول بطل الكسندر تفاردوزسكي في قصيدة « بعيدا ، بعيدا جدا » :

« لقد عشت ، ولقد كنت ،

وانا مسؤول عن كل ما حدث » .

وفي الاسطر الأولى من القصيدة يصرح البطل بأنه « يتدخل » في كل ما يحدث على الارض . فجدران البيت الصغير « غير قائمة بالنسبة اليه ، وبيته انما هو « العالم الهائل القائم خلف الجدران » والكرة الارضية كلها هي عالمه الحي الذي خلقته ايد بشرية » .

وموضوع مصير الانسان والانسانية والمحتوى الخلفي والفلسفي للفرد المعاصر مطروح بوضوح في مسرحية



إيليا اهرنبرغ

السوفييتية بالذات ، ومع جوهر الافكار الشيوعية . «اجل» ، ليس الانسان محروقا من محروقات التاريخ يلتهب من غير ان يخلف اثارا ، ويتحول الى طاقة تغذي حركة اجتماعية فقدت انسانيتها . اننا لا نستطيع ان نستخدمه لتسمين حقل التاريخ من اجل انبات مستقبل مجرد فيه ! .

« وكذلك يذهب شولوخوف في قصته « مصير انسان » الى قلب موضوع العلاقات بين الانسان والمجتمع . فهو يظهر الفنى الروحي والجمال الذي يتمتع به الانسان حين يعيش من اجل الآخرين ويؤكد حقه بالسعادة . والقصة تمتليء اعجابا بشجاعة البطل ونبل روحه وتجرده ، كما تمتليء آلا لاننا فعلنا قليلا جدا من اجل هذا الانسان الذي فعل كثيرا جدا من أجلنا والذي أعطى الوطن والانسانية . (وهنا يقول الكاتب) ان الوجودية تصدر عن فكرة ان هناك هوة تصعيدية لا تخترق بين الانسان والآخرين . أما شولوخوف فهو على العكس يؤكد بان شعور الانسان بانه لا غنى للآخرين عنه هو الذي يدعمه في الحياة . وبدون هذا لا يفهم الانسان معنى وجوده ولا يجد القوى التي تتيح له ان يعيش . ان شولوخوف يتحدث عن مسؤولية الانسان بالنسبة لوطنه وشعبه ، ويؤكد في الوقت نفسه مسؤولية الوطن والشعب بالنسبة لسعادة كل « فرد صغير » .

ولكن كيف يواجه الادب السوفييتي الحديث اشكال النزعة الانسانية ؟ وكيف يعبر الابطال عن هذه النزعة ؟ وهل حدث أي تطور في مفهوم الابداء في هذا الميدان ؟ يقول الناقد ستيفان كريجانوفسكي :

« لقد اقترب الادب من الشعب ، من مشكلاته واهتماماته ، وهو

سبنمائية ليونيد ليونيف بعنوان « فرار السيد ماكنلي » . وماكنلي هذا احد الموظفين المتواضعين العاديين المحدودين الذي يجسمون مصير ملايين من الناس في العصر الذري الحالي وان حلمه البسيط بالسعادة يظل غير قابل التحقيق في عالم الملكية الفردية ، هذا العالم الذي لا يهتم فيه احد بمصير رجل فقير متوحد . ويخيل لماكنلي انه جدير بحق حياة هادئة وبيت صغير وسعادة متواضعة . ولكنه يعيش في عالم يحكم عليه مغامرون سياسيون بالخوف الذري . وتشارك الدعاية وانوار الاعلانات واذاعات الراديو وشاشات التلفزيون والصحف بتحميل الجو بالجنون الذري . وهكذا يسير ماكنلي المسكين وسط هذا العالم مذعورا فاقسد الراحة ، تملكه فكرة واحدة: هي ان يفر من هذا « التاريخ » الفظيع ، من هذه البشرية المجنونة . .

ولكن رغبته في الفرار من مصير الانسانية تولد لديه سلسلة جديدة من الاعمال والافكار الاليمة تساعده على فهم مشكلة معنى الحياة والموت ، ومعنى الخير والشر . والخيار الذي يجد ماكنلي نفسه فيه ، بين ان يبقى مع الانسانية كلها ، يشاطرها مصيرها ، وبين ان يبقى على حدة ، منظويا في سعاده البائسة ، هو في الحقيقة الخيار الذي يجد فيه كل انسان نفسه في الظروف الحالية المعقدة . وقليلا قريبا يتكشف الطابع الوهمي للدرب الثاني امام ماكنلي ، فاذا هو يقذف من النافذة البطاقة التي تمنحه مكانا في ملجأ ضد الذرة ، فيفقد الى الابد أمل ان يتحرر من القلق الذي يحمله العصر الذري ، ولكنه ينخرط على هذا النحو في صفوف البشرية .

ان الكاتب يجد في محاولات الفرد الوهمية بان ينتصب في وجه الانسانية ، وان يفصل عن المجتمع ، ينبوعا للوحدة وللعجز الخلقي ولضعف بني البشر .

ان المستقبل ليس هو ملك البشر الذين انزلوا عن المجتمع ، وعن قلق عصرهم . ان مستقبل العالم مرتبط بالانسانية الحقيقية ، بالانسان النموذجي الجديد الذي لا يظل مكتوف اليدين ، بل ينخرط قلبا وروحا مع البشرية . وهكذا تكون استحالة فصل الابطال عن الوسط الاجتماعي وعن سير التاريخ هي الملمح الرئيسي للنزعة الانسانية وللواقعية الاشتراكية المرتبطين قبل كل شيء بجمال الانسان الحقيقي .

ان الانسان لا يكبر خارج الانسانية ، على ما يقول الناقد يوري بوريف . ولئن ادى تطور الانسان خارج المجتمع الى انحطاط الشخصية وتفككها ، فان تطور المجتمع خارج الانسان ، وضد مصالحه ، هو اقل تقدمية . « ليس هناك تقدم خارج الانسانية ، وليس هناك انسانية خارج التقدم الاجتماعي » .

ويستشهد الناقد برواية « قسوة » تأليف بافيل نيلين . وفيها نرى فانكا احد انصار « الفرقة » الجنائية يتناقش مع رئيسه في مفهومين مختلفين حول التقدم الاجتماعي . فرئيسه يعتبر ممكنا التضحية بلازار باوكين (1) باسم « التقدم » ، باسم المجتمع ، وباسم نفوذ الفرقة والسلطة السوفييتية التي تمثلها . ويعارض بافيل نيلين هذا المفهوم القاسي ، اللاانساني ، لقضية اجتماعية ، ويدلل على ان مثل هذا السلوك يتنافى مع مبدأ السلطة

(1) وهو فلاح امي ينضم الى عصاة تناهض الثورة . ولكنه تحت تأثير فانكا يجتاز أزمة خلقية خطيرة ثم يقرر ان يقطع علاقته بافراد العصاة ويساعد على اسر رئيسهم .

لا افهم تماما ما المقصود بها . ويخيل الي ان ليس ثمة موضوعات صغيرة،
وانما هناك طريقة هزيلة في معالجتها .

✱

هذا عرض واف لمفهوم النزعة الانسانية ولمضمونها
في الادب السوفياتي . ولا ريب في ان هذه النزعة منتشرة
انتشارا كبيرا وعميقا في النتاج السوفياتي ، ولا سيما في
الآثار الكلاسيكية الكبرى امثال مؤلفات غوركي وتشيفوخوف
وتولستوي ودستويفسكي .

على ان الباحث الموضوعي يفتقد في النتاج السوفياتي
المعاصر امثال هذه الشواخص التي لم يستطع الادباء المحدثون
ان يدانوها او يلحقوا بها .

٣ - الاديب السوفياتي والدولة

كان الاديب السوفياتي يشكو ، في عهد ستالين ،
الارهاب الفكري الذي تمارسه سلطات الحزب الحاكم .
ولكن ، الى اي حد أصبح الاديب السوفياتي ، بعد زوال
ذلك العهد والقضاء على « عبادة الفرد » ، يتمتع بحريسة
التفكير والتعبير ؟

لقد قال خروتشوف في خطابه الذي القاه يوم ٨
اذار ١٩٦٣ اثناء لقاء قادة الحزب والحكومة بممثلي
الادب والفن :

« ان قضاءنا على عبادة الفرد لا يعني مطلقا اننا نعيش مرحلة
تترأخى فيها ازمة الحكومة ، مرحلة استسلام يجري فيها قارب مجتمعنا
على هوان ، ويستطيع كل انسان ان يستجيب لكل أهوانه ويفعل كل ما
يبدو له حسنا . كلا . لقد اتبع الحزب وسيطع بحزم الخط اللينيني
الذي رسمه ، واقفا موقفا لا يتزعزع ضد جميع الوان الحيرة الايديولوجية» .
واذن ، فان الاديب والفنان مدعوان مجددا الى اتباع
الخط اللينيني الذي كانت عبادة الفرد قد افسدته . وقد
قال خروتشوف بصراحة في هذا الخطاب نفسه : « في
قضايا الادب والفن ، تطلب اللجنة المركزية في الحزب من
الفنان المدع الذي اكتسب اكبر الشهرة ، ومن الفنان
المتديء الشاب تطبيق الخط الحزبي تطبيقا لا هوادة فيه» .
ولا خلاف في ان هذا يعني ان الدولة تؤمن بالادب الموجه ،
وتأخذ على عاتقها مهمة رسم الخطوط الرئيسية له . وقد
قال ايلتشفيف في ذلك :

« ان من حظ الفن عندنا ان الحزب الذي يعبر عن
مصالح الشعب الاساسية ، والذي يقوم كل نشاطه على
مفهوم للعالم هو أكثر المفاهيم تقدمية ، هو الذي يحدد
مهمات الخلق الفني وتوجيهه . ان الخط الرئيسي لنمو
الادب والفن محدد في « برنامج الحزب » .

هذا هو المطلوب من الاديب السوفياتي : ان ينتج في
حدود الخط الحزبي . ولكن احداثا أدبية وفنية قد وقعت
اخيرا تدل - في رأينا - على ان تدخل الدولة في الميدان
الادبي يتجاوز حدود الخط الحزبي الى املاء اشكال معينة
ومحددة من التعبير الفني والادبي .

ولا بد لي هنا من ان استعرض هذه الاحداث ، لبتاح
للقارئ العربي ان يطلع عليها ، ويشارك في تكوين رأي
موضوعي فيها .

وهذه الاحداث تتعلق ببعض المعارض التي اقامها عدد
من الرسامين السوفيات ، وبمذكرات ايليا اهرنبرغ ،
وبزيارة بعض الادباء السوفيات للبلاد الغربية وصدور
عدد من الكتب الجريئة .
ففي العام الماضي زار خروتشوف وبعض قادة الحزب

يستجيب للتعطش الكبير الى الحقيقة ، هذا التعطش الذي يحسسه
الشعب . ولقد أصبح الادب اكثر انسانية وأقل تصويرية واوفر فلسفة
وأغنى بالمشكلات . وقد بدأ الابطال والمؤلفون انفسهم يتحدثون اكثر
فاكثر عن الجمال والسعادة . وقد زادت قيمة الانسان ونما اهتمام كل
انسان بالحياة . وان نمو الواقعية عمقا يفترض ايضا خلق الابطال
السلبين . ان نموذج المشكك والعمي والطفيلي والبيروقراطي والسوقي
والفردى والانتهازي هي نماذج مناهضة للانسانية ، ولكنها موجودة .
وتصويرها تحت ضوء واقعي هو عمل انساني كبير يقوم به الكاتب ، وهو
انجاز لواجبه كموطن وخالق .
ويقول الناقد الشاب فليكس كوزناتسوف :

« ان احد الملامح الهامة في ادبنا الحديث انه يغوض صراما عنيفا
ضد عدو حقيقي تماما ما يزال قائما : ضد اللاكترات والالاحساس .
ونستطيع ان نلاحظ هذا الصراع في سلسلة من الآثار : في كتاب
« شرف » لميدانسكي وفي مسرحيتي فيكتور روزف «صراع غير متكافي»
و « نهار صاخب » ، و امثال كتاب « ادخل الى كل بيت » لاليزار
مالتسيف ، وروايات فلاديمير تانديرياكوف وسواها ، ليست زاخرة
بالاحتجاج العنيف ضد كل ما هو لانساني ولاشعبي ؟» .

وهناك عدة آثار يولي مؤلفوها اهتماما خاصا للوجود
العادي للانسان . ويرى بعض النقاد ان هذا الاهتمام
يؤدي الى افقار المبدأ البطولي ، والى خلق ادب خال من
الابطال . ويؤكد فلاديمير تشاربين ان في بعض الآثار رغبة
حادة في تسجيل المجرى العادي للحياة ، ومن جانب واحد .
ولكن الكسند ديمانتيفيف يرد على ذلك بقوله ان

الاهتمام الذي يوليه هؤلاء الكتاب للانسان العادي ، واردة
الترجمة عن رغباته وحاجاته ، وعن كرامته البشرية ، انما
ازدادت في السنوات الأخيرة لتعارض رغبة « التجميل »
و « التحسين » التي تتميز بها بعض الآثار .

وبعارض ديمانتيفيف بقوة ما يسميه محاولة اسقاط
بعض افكار البشرية كحب الانسان والطيبة والشفقة من
قاموس النزعة الانسانية .

وتستشهد الكاتبة المعروفة اولغا برغولتز بما كان
دانين قد كتبه تعليقا على كتابها عن لينينغراد ، متحدثا عن
الشفقة التي كان الوطن والشعب يكنانها للنينغراد . ولكن
ناقدا قام يهاجم دانين ويقول ان الشفقة غير جديدة
بالانسان السوفياتي : « اننا نكن للنينغراد شعور اعجاب
واعتراز ، وليس ثمة مجال لاية شفقة » . وتقول اولغا
برغولتز :

« لقد كان مريعا ان نقرأ مثل هذا الكلام . ان الانسان يتميز عن
عالم الحيوان بالشفقة قبل كل شيء . كل ما هو حي يمكن ان ينال ،
ولكن الانسان وحده يستطيع ان يشفق ويتعاطف ، أي ان يحس السم
شخص اخر كما لو انه آله الخاص ، ويود لو يأخذ هذا الالم على عاتقه
او يستدركه او يساعده » .

وتضيف اولغا برغولتز ان ميلا نحو افراغ الادب
السوفياتي من النزعة الانسانية قد قام في عهد عبادة
الشخصية ، وان هذا الميل قد سجل النجاح في لوحات
وافلام وقصائد وكتب كانت كل عاطفة بشرية ممنوعة فيها
على الانسان بحيث لم يكن الفرد الا هيكل قائما على
ساقين . وتقول الكاتبة :

« لقد كاد هذا يخفي الان ، ولكن يخيل الي مع ذلك ان هناك بعض
الردات . ومنها في رأي المحاورات القائمة حول ما يسمى « الانسان
البيسط » . وانا لا افهم المقصود بهذه العيفة . بم يكون هذا الانسان
بسيطاً ؟ اسبب عمله ؟ ولكن غوركي كان قد حدد مهمة الكاتب في ان
يتحدث عن الانسان ككائن « مدهش » ، مهما كانت المهمة التي يؤديها .
ومن هذه الردات ايضا ما يسمى بمرض « الموضوعات الصغيرة » ، فانا



نيكراسوف



تفاردوفسكي

الثل الذي ذكره الرفيق افنوشكو لا يمكن ان يتخذ حجة جدية في صالح هذه المعتقدات .

واستطرد رئيس الدولة السوفياتية يقول :

« ويتفق موقف الرفيق افنوشكو تجاه التجريدية مع الافكار التي يدافع عنها الرفيق اهرنبرغ . ان الشاعر الذي ما يزال شابا لا يفهم كثيرا من الاشياء في سياسة حزينا ، وهو موضع ارتجاج ، وآراؤه في قضايا الفن غير ثابتة . ولكن خطابه في جلسة اللجنة الايديولوجية تسمح بالاعتقاد انه سيتمكن من التغلب على حيرته وتردده . وانا احرص على ان انصح الرفيق افنوشكو والادباء الشباب الاخرين بان يقدروا ثقة الجمهور ، ولا يحثوا عن الاثارات الرخيصة ولا يتأقلموا مع عقليسة البورجوازيين الصغار واذواقهم . لا نخجل ، ايها الرفيق افنوشكو ، بان تعترف باخطائك ! ولا تخش ما سيقوله الاعداء ! عليكم ان تدركوا بوضوح اننا اذا انتقدناكم لانكم انحرقتم عن المواقف البدئية ، فان الاعداء يأخذون في مدحكم . واذ بدأ اعداء قضيتنا يمدحونكم بسبب الاثار التي تروقههم ، فان الشعب سيكون على حق في انتقادكم . فاخاتروا اذن ما يناسبكم ! » وعاد خروتشوف الى مذكرات اهرنبرغ ، فقال :

« تنتشر اليوم اسطورة مفادها ان لينين كان يقف موقف تسامح ، ان لم يكن موقف ود ، من التجارب الشكلية في الفن . ومن سوء الحظ ان الرفيق اهرنبرغ هو بين الذين يذيعون الاكاذيب بشأن آراء لينين . فهو يكتب في مذكراته : « لقد روى لي لوناتشارسكي انسه حين سأل لينين اذا كان من الممكن ان يمنح الرسامون « اليساريون » حسق تزيين « الساحة الحمراء » بمناسبة اول ايار ، اجابه لينين : « انما لست اخصائيا في هذه المادة ، ولا اريد ان افرض ذوقي على الاخرين » .

« ان الرفيق اهرنبرغ يوحى هنا للقراء بان لينين كان يقبل مسا يدعى بتعايش النزعات الايديولوجية المختلفة في الاتحاد السوفياتي . وهذا خطأ ، ايها الرفيق اهرنبرغ ! واننا تعلم ان لينين هو الذي وضع مبدأ روح الحزب والشخصية الايديولوجية في الفنون والآداب . وقد دافع غوركي دفاعا حارا عن هذا المبدأ وكذلك كتاب اخرون تبناوا بعزم مواقف السلطة السوفياتية ، مواقف النضال من اجل القضية العمالية ، وانتصار الشيوعية . ولقد قدر لينين تقديرا عظيما روح الحزب والشخصية الايديولوجية والمهارة الفنية في رواية غوركي « الام » .

« ان قوة الاثار تكمن في المهارة الفنية وفسي وضوح المواقف الايديولوجية وايجازها . ويحدث الا يروق هذا للجمع . وحيانا يهاجم الايجاز الايديولوجي للانار الادبية والفنية بحجة النضال ضد النزعة البلاغية والتعليمية . وقد تجلت هذه الروح باجلى صورها في دراسة نيكراسوف متحدثا عن فيلم « مركز ايليتش » الذي لم يعرض على الشاشة بعد : « انني اعترف اعترافا عميقا بجميل كوتسييف وشباليكوف لانهما لم يجرا العامل المعجوز الذي يفهم كل شيء ويعطي كل شيء جوابا

« معرض الرسامين التشكيليين » الذي اقيم في موسكو وشاهدوا آثار بعض الرسامين التجريديين والنحات نايرفستيني ، فرأوا فيها « خريشات » مجردة من اي معنى ، ووصفوها بانها ليست الا « تشنجات مرضية » ، ونقليدا للفن الشكلي في الغرب البورجوازي .

وقد قال خروتشوف في المعرض : « ان مثل هذا « الخلق » غريب على شعبنا ، وشعبنا يرفضه . ويجب الا ينسى ذلك اولئك الذين يسمون انفسهم رسامين وهم يخلقون « لوحات » لا يدري المرء اذا كان الذي صنعها يد انسان او ذنب حمار . يجب ان يدركوا ضلالهم ويعملوا من اجل الشعب . »

والحق اننا لا نفهم الشر او الضرر اللذين يقعان على « الشعب » من الرسم التجريدي ! ما هي القضية « الحيوية » التي يمكن لهذا النوع من الفن ان يفسدها او يعود عليها بالاذى ؟

ربما كان المآخذ الرئيسي على التجريدية انها لا تستطيع ان تمثل بوضوح بعيد عن الالتباس انجازات الاشتراكية او الشيوعية . ولكن اليس من التضييق العنيف على حرية الفنان ان يلزم بانتاج محدد ضيق لا يجوز له ان يتجاوزه ، حتى ولو لم يكن في هذا التجاوز ما يحمل بذور الضرر « للقضية » ؟

يقول ايليتشيف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي : « ان التحذيرات « التجريدية والعصرية هي تيار لم يكن قط علامة فن سليم صحيح ، وهو يستعد عن الخط الرئيسي لتطور الادب والفن السوفياتيين ، وينصرف عن ربط الخلق الفني بحيياة الشعب وتطبيق البناء الشيوعي . »

ولكن اليس في هذا الرأي وقف وتجميد لتطور الفن ، بحجة ان « الخط الحزبي » لم يتنبأ بمثل هذا التطور ؟ ونرى خروتشوف يستشهد في خطابه الأثف الذكر بمقطع لأهرنبرغ اوردته في مذكراته وأعلن فيه اصراره على الدفاع عن بعض المدارس الادبية والفنية كالكمفوت (المستقبليين الشيوعيين) والصوريين والتعبريين والتجريديين والحاضرين ، فيعلق خروتشوف بقوله :

« وهكذا يغذي مؤلف المذكرات ودا عميقا لمثلي الفن الموصوف بانه « يساري » ويريد ان يدافع عنه . امن الممكن التساؤل : يدافع عنه ضد من ؟ في الظاهر ، ضد نقدنا الماركسي اللينيني . لماذا ؟ طبعاً للدفاع عن امكانية وجود هذه الظواهر او الظواهر الماثلة في فننا المعاصر . وقد كان هذا يعادل الاعتراف بتعايش الواقعية الاشتراكية والشكلية . ويرتكب الرفيق اهرنبرغ خطأ ايديولوجيا فادحا ، وان من واجبا ان نساعد على ان يفهمه . »

وتحدث خروتشوف عن موقف الشاعر افنوشكو من الفن التجريدي ، فقال :

« هذا وقد خطب الرفيق افنوشكو في المرة الماضية لدى اجتماعنا مؤيدا المذهب التجريدي . وقد حاول ان يبرر هذا الموقف بان هناك رجلا شجعانا بين الواقعيين وبين الشكليين ، معتمدا على مثل مأخوذ من حياة فنانيين كوبيين كانت لهما مفاهيم متناقضة في الفن ، ولكنهما ماتا بعد ذلك معا في الخندق نفسه وهما يقاثلان من اجل الثورة .

« لقد امكن لهذا ان يحدث في الحياة كحالة خاصة . وبالامكان الاستشهاد بمثل معاكس تماما . فبعد الحرب الاهلية اقيم في مدينة ارنوفسك في اوكرانيا بناء شكلي بشع كان مصممه النحات التكبيي كافالريزه . وكان ذلك مشهدا فيحيا . ولكن التكبييين كانوا متحمسين (وقد هدم البناء في اثناء الحرب) وقد ظل صاحب هذا البناء في الارض المحتلة من قبل الفاشست وسلوكا غير لائق . بمعنى ان

وطبيعة التغيرات البدئية الرئيسية التي حدثت وتحدثت في الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية للشعب بعد المؤتمر العشرين للحزب . واذكر في هذه الفئة قصة الرفيق اهرنبورغ « ذوبان الجليد » . ففكرة ذوبان الجليد مرتبطة بمفهوم عهد من اللااستقرار والتردد وعدم الإنجاز وتغير الجو في الطبيعة ، في وقت يصعب فيه التنبؤ بحالسة الطقس وتطوره . ان المرء لا يستطيع ، بواسطة هذه الصورة الأدبية ، ان يكون رأيا حقيقيا عن طبيعة التغيرات البدئية التي حدثت بعد موت ستالين في الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية ، في إنتاج المجتمع السوفياتي .

أما رحلات الأدباء السوفيات الى الخارج ، فقد علق عليها خروتشوف بقوله :

« ان المرء حين يطلع على تصريحات بعض الأدباء السوفيات في الخارج ، لا يستطيع ان يفهم ما الذي كان يهمهم : اكان يهمهم ان يروا الحقيقة المتعلقة بالانتصارات التي حققها الشعب السوفياتي ، ام ان يروا باي نمم للجمهور البورجوازي . ان مثل هؤلاء « المسافرين » يعطون تصريحاتهم ذات اليمين وذات الشمال لمختلف الصحف والمجلات ووكالات الأنباء البورجوازية بما فيها اشدها رجعية ، وفيها ينشرون بلا مسؤولية مدهشة ، اساطير عن الحياة في مسقط رأسهم .

وقد خلفت رحلات نيكراسوف وباستوفسكي وفوزنيسسكي في فرنسا انطباعا سيئا . وصرح كاتبيف تصريحات يعوزها التفكير انشاء رحلته عبر اميركا . ويكفي في الخارج تملق كاتبف لتوزع الصلابسة وتسميته بأنه « رمز مرحلة جديدة » او ما يشبه ذلك حتى ينسى من اين اتى ولماذا ، ويبدأ في قول الحمافات .

وقد قام الشاعر افوتشونكو حديثا برحلة الى المانيا الغربية وفرنسا ، وعاد من باريس حيث تكلم امام جموع حاشدة من العمال والطلاب واصدقاء الاتحاد السوفياتي . ويجب ان نكون منصفين ونذكر ان الرفيق افوتشونكو قد سلك مسلكا لائقا في هذه الرحلة ، ولكنه لم يستطع هو ايضا ، اذا صدقنا مجلة « لايتزر فرانسيز » ، ان يقاوم اغراء استحقاق

المدائح من الجمهور البورجوازي . «

وبعد ، فقد حرصنا على ان نورد هذه المقاطع الكبيرة من خطاب خروتشوف لنثبت للقراء امرين :

اولهما - ان صرامة الخط الحزبي في الاتحاد السوفياتي ما تزال تفرض على الأدباء والفنانين السوفيات حدودا وقيودا تحرمهم من ممارسة قدر من الحرية لا يستطيع الاديب ان يتخلى عنه دون ان يتخلى عن حقه في التعبير .

اننا نفهم ان يكون الأدباء السوفيات مؤمنين ايماننا لا يتزعزع بالنظام الشيوعي والفكر الاشتراكي ، وان ينتجوا كثيرا من آثارهم بوحى من هذا الايمان ، وان يكونوا قبي ذلك مخلصين كل الاخلاص ، ولكننا لا نفهم ان تقوم سلطة الحزب الحاكم بفرض قيود على مدى الانتاج ، وتحريم خلق الوان جديدة من الادب والفن لا تتعارض قط مع اهداف الحزب وانجازاته .

والامر الثاني - ان انتقادنا الاشد ومأخذنا الاعنف هو ان يتولى « رئيس الدولة » توجيه الانتقادات القاسية والالتهامات العنيفة الى الأدباء والفنانين ، فليقي بذلك ظل الدولة الكثيف فوق الآثار الأدبية والفنية ، ويحدث ضغطا واضحا على الانتاج ، شاء ام ابى . والحق ان خروتشيف لو كان نافدا عاديا ، لا يتولى السلطة في البلاد ، لما كان عليه مأخذ قط . ولكنه ، وهو رئيس دولة ، يفرض رأيا لا يمكن الا ان يخلف تأثيرا شديدا على الأدباء والفنانين . فتتعطل لديهم ملكة الحرية قسي الاختيار والتعبير ، وليسوا بمستطيعين دائما ان يقفوا في وجه هذا الرأي او يعارضوه .

- التتمة على الصفحة ٦٥ -



يوجين افوتشونكو



منطقيا وموجزا ، لم يجراه من شاربيه . وكان حسبه ان يظهر بتعاليمه ليفسد الفيلم كله . «

« هذا ما نشره كاتب سوفياتي في مجلة سوفياتية ! ولا يستطيع المرء ان يقرأ ، من غير ان يفتانظ ، اقواله المأذى باحتقار السيد للعامل العجوز . وانا اعتقد ان هذه لهجة غير مقبولة من كاتب سوفياتي . ويجب ان نضيف ان القضية ليست في الدراسة المذكورة قضية التعبير عن موقف المؤلف تجاه امر فني واحد ، وانما هي الدعوة الى مبدأ غير مقبول اطلاقا في فننا ، ولا يسعنا الا ان نناقضه . «

وتعليقا على مذكرات اهرنبورغ « الرجال والسنوات والحياة » قال خروتشوف في الخطاب نفسه :

« ان ما يلفت النظر ، حين نقرأ مذكرات اهرنبورغ ، هو انه يصور كل شيء تحت لون قائم . وفي عهد عبادة الشخصية ، لم يكن اهرنبورغ شخصيا هدف ملاحظات ولا قيود . وغير هذا تماما كان مصير الاديب غالينا سيريريوكوفا ، مثلا ، التي قضت اعواما طويلة في السجن . ولكنها رغم ذلك احتفظت بقوتها الروحية ، واخلاصها للقضية « الحزب » وبعد ان اعيد لها اعتبارها ، استعادت حياتها الخلاقة واستعادت سلاحها وكتبت آثارا ضرورية للشعب وللحزب . . .

« ونذكر ان الرفيق اهرنبورغ ذهب ذات يوم الى فلاديمير لينين في باريس حيث استقبل استقبالا حسنا ، كما كتب هو نفسه . بسل ان الرفيق اهرنبورغ قد انتسب الى « الحزب » ثم ابتعد عنه ، فيما بعد . انه لم يشارك مباشرة بالثورة الاشتراكية ، وانما وقف على الاربع موقف المراقب الاجنبي . واحسب اني لا اشوه الحقيقة اذا اكدت ان اهرنبورغ انما هو يقيم ، انطلاقا من هذا الموقف نفسه ، ثورتنا والمرحلة التالية في البناء الاشتراكي .

« ان مهمة الفنان هي ان يشارك مشاركة حية بنتاجه في توكيد افكار الشيوعية وفي توجيه ضربات ساحقة لاعداء الاشتراكية والشيوعية وفي النضال ضد الامبرياليين والاستعماريين . «

وبعد ان تحدثت خروتشوف عن شولوخوف ومشاركته في حياة النضال تطرق الى موضوع استحالة « التعايش السلمي » بين الايديولوجيتين الاشتراكية والرأسمالية ، ثم قال :

« في المدة الاخيرة ، نشرت مجلات ادبية وفنية ودور نشر كثيرا من الاثار عن حياة المجتمع السوفياتي في عهد عبادة الشخصية وفي ايماننا . وطبيعية جدا هي رغبة الكتاب في تحليل ظواهر الماضي المعقدة . ومعلوم ان اللجنة المركزية للحزب قد دعمت آثارا ذات طابع نقدي حاد . ولكن يجب القول ان هناك كتبا تصور ، في رأينا ، بطريقة غير صحيحة على الاقل ، او بالاحرى مخزنة ، ظواهر واحداثا مرتبطة بعبادة الشخصية

اضواء على الادب السوفياتي

- تمة المنشور على الصفحة ٨ -

والواقع ان هذا الموقف « الرسمي » قد ادى ، ولا يزال يؤدي ، الى نتيجتين : اولهما ان حملات مركزة في جوقة منسجمة قد شنت على هؤلاء الادباء والفنانين ، حملات قام بها النقاد والدارسون ، ولا سيما بعد خطاب خروتشيف ، وكانوا غالبا ما يستشهدون ببنصائح رئيس الدولة ومواعظه ، والثانية ان معظم هؤلاء الادباء والفنانين الذين وجهت اليهم الانتقادات العنيفة لم يجدوا الا ان يتراجعوا علنا « ويستغفروا » عن ذنوبهم « ويتوبوا » الى الحزب نوبة نصوحا ..

لقد اوردت مجلة « اوفر اي اوبينيون » (١) عرضا مسهبا لمناقشات مؤتمر الكتاب السوفيات الذي انعقد بعد خطاب خروتشوف فقالت « ان الاجتماع العام للكتاب قد اولى اخطاء افتوشنكو في سلوكه وفي انتاجه اهتماما كبيرا » ورددت تهمة نقص النضج السياسي والايديولوجي لدى الشاعر ، ووصفت كتابه « سيرة ذاتية ناضجة قبل الاوان » بأنه كتاب دعي يضم احكاما خاطئة تجر القاريء الى الخطأ في تقييم كثير من الظواهر الهامة في الحياة السوفياتية ، وقالت : « انه محشو بروح من اللامسؤولية ومن الدعاية الشخصية » . وواضح ان هذا التقييم للكتاب لا يقوم ، كما ينبغي ان يقوم ، على اساس من وزنه الفني . وقد تحدث يوري جوكوف ، محللا « السيرة الذاتية » ، مشيرا الى « اخطاء » افتوشنكو ، فقال :

« اننا جميعا جنود حزينا . ولا اعني ان افتوشنكو ليس جنديا . انه يتفق له ان يكون جنديا طيبا ، كما حدث حين كتب قصيدة « هل يريد الروس الحرب ؟ » . وحين كتب اشعاره عن كوبا او قصيدته عن هلسنكي ضد الفاشية . ولكن لماذا تراه ينتقل بمثل تلك الخفة الى مراكز الاستسلام امام العدو الايديولوجي ؟

وقال ليونيد نوفيتشكو في الموضوع نفسه :

« ان قضية افتوشنكو تثير الفيض . ولكنها تحمل عبءا . فمع كل ما لدى افتوشنكو من الحسنات ، فانه قد ادخل في شعر الشباب نموذجاً للشاعر غريبا كل الغربة عن ادبنا : نموذج العياب ، السياسي ، صانع المجد لنفسه . والمؤسف ان المثال كان معديا . فالمصاربة بالسياسة تظهر عندنا في اوكرانيا ايضا في انتاج ايفان دراتش وفنغرانوفسكي .. »
« وهناك شيء اخر : ان افتوشنكو انسان تعوزه الثقافة اطلاقا ، بالاجمال ، ويعوزه على مستوى الثقافة الماركسية ، المفهوم الماركسي للعالم .

ان ذكرياته معنونة « سيرة ذاتية لانسان ناضج قبل الاوان » واضيف الى ذلك : انسان لم يتعلم شيئا تعلمنا جادا . انني انني على النقد ، وعلى روح المراقبة ، وعلى « الظهور » المستحب في الحياة في الوسط القريب منه . ولكني حين اقرأ اشعاره ، يحدث لي غالبا ان اتعثر في الاماكن التي يبدأ فيها بالتفلسف . وهذا كله اذا اضفنا اليه الاقدام الهائل الذي ينعم به هو واصدقاؤه ، يخلق في الادب مرقا دونا يجب ان يحمل محمل الجد . »

واشار بوريس زوربوكوف السى ان فوزنسكي واكسيونوف وافتوشنكو قد تمثلوا تاريخ الشعب السوفياتي تمثلا خاطئا ، وانهم اخذوا فكرة مشوهة ومتشائمة عن عهد السنوات الثلاثين ، فنشأت لديهم

(١) راجع العدد السادس تاريخ حزيران ١٩٦٣

نظريات من كل نوع تنصب « الآباء » في وجه « الابناء » ، وتنصب الاجيال « المجددة » في وجه الاجيال « المحافظة » .

وانتقد اناتول سوفرونوف تشجيع الكتاب والادباء الشباب ، وانتقد نشر مذكرات اهرنبورغ في نوفي مبر وقال اننا لا نستطيع ان نقرأها من غير ان نشعر بشعور الحنق والفيظ « . وحين قال شيباتشوف المديسر السابق لمنظمة ادباء موسكو : « لا يستطيع الا ان اذكركم بايليا اهرنبورغ في زمن الحرب » قال سوفرونوف : ولكن القضية قضية ما يكتبه اهرنبورغ اليوم !

وقال فاسيلي سميرنوف : « يجب ان نربي اولئك الذين سيحلون محلنا في الادب ، ان نربيهم في تقاليد الادب الروسي الطليعي والادب العالمي الكلاسيكي والتقاليد الاشتراكية الثورية التي يعرفها الادب السوفياتي ، وفي الروح الحزبية والشعبية لفننا ، التي هي حجر الزاوية في منهجنا الواقعي الاشتراكي . »

وقد تحدث افتوشنكو في الجلسة العامة للادباء السوفيات ، فاعترف بخطاه القادح ، وقال بصورة خاصة :

« بصفتي عضوا في مجموعة الكتاب ، اجد من واجبي المدني الا اختبئ في الافعال لافلت من المسؤولية ، وانما علي ان اعطي تفسيرات .. . لقد قدموني غالبا في الغرب بصفتي « الشاعر الذي تلغنه الساحة الحمراء » وقد تحدثت اكثر من مرة ، في البلاد الاجنبية ، لارد على المقترين . ووردت في « سيرتي الذاتية » ايضا ان اثبت اني لم اكن قط شاعرا تلغنه الساحة الحمراء ، وان الايديولوجية الشيوعية كانت وما تزال وستبقى اساس حياتي كلها . وانا ارى الان ان « سيرتي الذاتية » قد كتبت باسرع مما ينبغي ، وان فيها كثيرا من الصيغ غير الصحيحة ومن التفاصيل النافلة ومن الاشياء البعيدة عن التواضع . »
وصرح افتوشنكو انه عارض اكثر من مرة تعبير « ذوبان الجليد » الذي اطلقه اهرنبورغ تمييزا للمرحلة اللاحقة للمؤتمر العشرين ، وقال ان تلك الفترة كانت ريبعا ، كانت الاعوام التي تفتحت فيها البلاد . وازداد :

« ان في « سيرتي الذاتية » اشياء رصينة ، جادة ، معاشة . ولكني ارى فيها ، اذ اعيد قراءتها اليوم ، اشياء كثيرة سطحية واحيانا غير متوازنة . وغلطتي الرئيسية هي انني نسيت اخلاق الصحافة الاجنبية . وقد عوقبت على ذلك عقابا قاسيا . »

وذكر افتوشنكو ان المجلة الفرنسية الاسبوعية قد اضافت الى سيرته عناوين مثيرة ونشرت مقالات تعطسي هذه السيرة معنى لم يكن يقصد ان يعطيها اياه ، وقال معلقا : « ان هذا المثل قد اقنعني مرة اخرى بنتائج حققتي المعيبة » .

« ويجب ان اقول ايضا اني حين عرفت النص الفرنسي ، دهشت للتشويهاة و « التصحيحات » التي اجراها تحرير « الاكسبريس » . فقد حذفوا مثلا نهاية « سيرتي الذاتية » . وكنت قد كتبت فيها : « كان طالب قد قال لي ، وهو بعيد عن ان يكون حفيدا للثورة الفرنسية : اني مع الاشتراكية بالاجمال ، ولكني افضل ان انتظر ريثما تصبح لديكم مخازن كمخزن « غاليري لافاييت » ولعني حينذاك ساناصل من اجل الاشتراكية . » وقد خجلت نيابة عن هذا الشيخ الشاب الذي يجب ان تقدم له المستقبل على صينية من فضة ، مستقبلا مطبوخا جيدا ، مشويا جيدا ، مع عرق من الشمار . ربما وافق ، آنذاك ، على ان يزرع فيه شوكته .. . لقد صنعنا المستقبل نحن بالذات ، زاهدين حتى بالضروري ، متألين ، مخطئين ، ولكننا صنعناه . »

« نعم ، لقد كتبت هذا ، فحذفته « الاكسبريس » . وسأذكر فيما يلي مثلا مما اضيف الى نصي الاصلي . فقد كنت اتحدث عن بريقة كان قد ارسلها الي منذ اعوام بحارة سفينة حربية ، يمتدحون فيها اشعاري . وانا اعترف الان انه كان ينبغي لي الا الجأ الى تلك البرقية ، وان ذلك لم يكن متوازنا . ولم تكتف « الاكسبريس » بذكر هذا المقطع بشكل يبدو فيه عدم تواضعي مبالغا فيه جدا ، بل اضافت شيئا لا يمكن

تصوره : « لقد وقع البرقية جميع بحارة الباخرة . والذين يعرفون تاريخ بلدي وثورته ، يعرفون اي نفوذ اكتسبه بحارة البلطيق عام ١٩١٧ . وقد كان في رسالة ورتتهم ما يعوضني من جميع الهجمات التي تعرضت لها . كنت انتزه في شوارع موسكو ، عالي الرأس ، كما لو انني حصلت على المدالية الذهبية » .

« انني لم اكتب هذا ، وانما « الاكسبريس » هي التي كتبتة . « واكرر انني ارتكبت غلظة لا تعوض . وانا اشعر بذنب ثقيل يؤود كنفني . ولا اني افكر بالمسؤولية الضخمة التي تقع على كل كاتب سوفياتي . وصدفوني ان هذه ليست عبارة جوناء ، بالنسبة لي . لقد تألمت كثيرا وعانيت كثيرا في هذه الايام الاخيرة . وهذا درس لي في حياتي كلها . واريد ان اؤكد للكتاب انني ادرك تماما اني اعني وعيا كاملا خطئي ، وانني ساجهد لاصلاحه فيما يلي من اعمالتي » .

وقالت مجلة « اوفر اي اوبينيون » تعليقا على خطاب افوتوشنكو :

« من الضروري القول ان هذا الخطاب لم يرض الحضور . فقد كانوا يشعرون بان فيه لهجة تظهر ان افوتوشنكو لم يع جذور خطئه ، سواء اكان ذلك في سيرته الذاتية « ام في بعض اشعاره .

وقال اندريه فوزنسكي في الاجتماع العام للادباء :

« لقد قيل هنا ان علي الا انسى الكلمات القاسية الخسنة التي قالها خروتشوف . انني لن انساها ابدا . كذلك لن انسى نصائحه . لقد قال : « اعملوا ! » وهذه الكلمة هي بالنسبة لي برنامج . ساعمل ، وانا اعمل ، وافكر كثيرا ، وقد فهمت اشياء كثيرة في هذا الذي جرى في الكرملين وفي الذي قيل في الجلسة العامة . انني ادرك مسؤوليتي الضخمة امام الشعب ، وامام الحقبة ، وامام الحزب الشيوعي . ان هذه اعز البادئ لدي . وانا لا ابر نفسي ، وانما اريد ان اقول : المهم بالنسبة لي اليوم هو ان اعمل ، وان اعمل ، وان اعمل ، وهذا العمل سيظهر موقفني تجاه بلدي وتجاه الشيوعية ، سيظهر من اكون » .

هذه هي الاعترافات التي ادلى بها افوتوشنكو وفوزنسكي . اما نكراسوف ، فقد كان احرص منهما على كرامته ، ففرض ان يعترف بشيء . . . وكانت النتيجة انه فصل من الحزب الشيوعي . . . واما اهرنبورغ فيبدو ان له من ماضيه ما جعل الساطة تغض النظر عن اتخاذ تدبير قاس بحقه . . .

ويخيل لي اننا ان الخوف مما تقوله « الصحافة الغربية البورجوازية » قد اصبح عقدة لدى القيمين والمشرفين على النشاط الادبي والفني في الاتحاد السوفياتي ، فهم لا يفتأون يحذرون الادباء من ذلك فيفسرونهم على التقيد في

تصريحاتهم وتصرفاتهم بحدود شديدة القسوة والصرامة ، على غير ما فائدة حقيقية .

لقد قرأنا مذكرات افوتوشنكو ، فوجدنا فيها تمجيدا مخلصا للثورة الاشتراكية وللنظام الشيوعي . اما ان يكون افوتوشنكو « مغرورا » فتهمه تافهة لا شان لها في تقييم النتاج الفني ، لا سيما اذا كان صاحبه شاعرا . استطاع ان يجذب اليه الوف المستمعين وان يشعرهم بأنه ساحر ، الى كونه شاعرا !

صحيح انه لم يحدث اليوم . كما كان يحدث في عهد ستالين ، ان نفي اديب « خارج على الخط الحزبي » الى سيبيريا او وضع في معسكرات الاعتقال ، او اختطفه البوليس . . ان مثل هذا الارهاب غير موجود اليوم . ولكن هذه الطريقة في انتقاء الادباء ، من قبل رجال الدولة المسؤولين ، وفي اسداء النصح لهم ، وفي حثهم للعودة الى الخط ، وفي استثارة النقاد وتاليبهم عليهم ، وفي اتهمهم بالفرور والسطحية والخفة ، ليست هذه الطريقة نوعا من الضغط المخيف ، ان لم نقل الارهاب ؟ او ليس هذا شبيها بـ « المكارية » الاميركية ؟ وبالارهاب البوليسي الذي يمارسه نظام فرانكو على الادباء والمفكرين الاسبان ؟

٤ - السوفيات والادب الاجنبي

يهتم الادب السوفياتي الحديث ، ولا سيما جانب النقد فيه ، بالتيارات الادبية الاجنبية ، فيدرسها ويبدى رأيه فيها . ومن البدهي انه ، لالتزامه خط الادب الواقعي الاشتراكي دون سواه ، يبدو في احيان كثيرة محدود النظرة ، مهمل في ذلك نتاج كثير من الادباء الذين لهم شأنهم في تاريخ ادبهم .

على ان النقد السوفياتي يبدو الان وكأنه يحاول ان يتخطى هذا المسلك اذ يقدم للقراء السوفيات نماذج مختلفة من النتاج الادبي المعاصر ليست دائما في الخط المطلوب ، وان كان يقدم لهذه النماذج بدراسات نقدية صارمة .

وقد اهتمت الدراسات الادبية اهتماما واسعا بنتاج الادباء التقدميين في العالم امثال هنريك مان وبرنارد شو وتبودور درايزر وتوماس مان وشارلز سناو واندرية ستيل ولويس اراغون وهمغواي . وتارت مناقشات كثيرة في الفترة الاخيرة حول نتاج ريمارك وغراهام غرين ، واثني النقاد على ادباء المانيا الغربية : كوبان وهنريك بول وهانس ريشتر وكريستيان جيسلر (١) .

ويبدى النقاد السوفيات موقفسا سلبييا عنيفا من الفاسفة والادب الوجودي ، لاعتقادهم بأن الحلول التي يقدمها لمشكلات الانسان ليست حولا انسانية .

وفي ذلك يقول ايفان انيسيموف : « ان مفهومنا للانسانية ليس مرتبطا بالكرامة البشرية فحسب ، بل ايضا بوحى واجبنا التاريخي . ان النزعة الانسانية الثورية مرتبطة دائما بصراع ضد كل ما هو معاد للانسان والانسانية . فالعطف والشفقة غير كافيين ، ولا بد من التدخل الفعال الهادف الى اسقاط البشر . »

ويأخذ الناقد على انسان سارتر مثلا ، ذلك الذي

(١) هناك نافذة سوفياتية معروفة تخصصت بدراسة الادب الاجنبي ، هي تامارا موتيليفا التي اصدرت عدة كتب اشهرها « انا سيفيرز » و « اهمية تولستوي العالمية » و « نتاج رومان رولان » . وقد اثار اخر كتاب لها وعنوانه « الادب الاجنبي والظروف الحالية » كثيرا من النقاش ولا سيما حول موضوع الواقعية في القرن العشرين .

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير تلفون ٢٢٧٦٨٢

لجميع كتبكم المدرسية العربية

والفرنسية والانكليزية

يستولي عليه القلق ويحس ابدأ انه مهجور ، يأخذ عليه انه ليس انسانيا الا بقدر ما يعلم ان هناك عددا كبيرا من البشر ، امثاله . ولكنه لا يستطيع ان يفعل شيئا يساعد نفسه او يساعد الاخرين .

واوضح ان هذه التهمة التي بلصقها الناقد بالادب الوجودي لم تتعمق دراسة هذا الادب الذي يبدو فسي معظم نماذجه ادبا انسانيا .

ويقف النقد السوفياتي موقفا مماثلا من مدرسة « الرواية الجديدة » او « اللارواية » . وفي اجتماعاتي بحرري « نوفي مير » و « الادب الاجنبي » و « ازفستيا » طرحت اسئلة كثيرة حول هذا الشكل الجديد من الرواية فانكروه جميعا واكدوا انه لن يكون له مستقبل في النتاج السوفياتي الحديث . وهم يأخذون عليه انه يتعد عن الفن الانساني حين يحلل جوهر الانسان الواحد الكامل الى « معقدات » وعواطف ، ويعزل الفرد عن المجتمع ، ويطوي الشخصية على ذاتها . ويقول الناقد نيقولايف غايي: « ان مؤلفي « الرواية الجديدة » لا يرون الخطوط الحقيقية التي تميز فردا من ملايين الكائنات المشابهة . انه محروم من حق ان يكون شخصية ومحروم من سبولوجية خاصة . » (1)

ويميز النقاد السوفيات الواقعية الاشتراكية من واقعية نقدية تتظاهر بتحليل المجتمع الغربي تحليلا انتقاديا ، ولكنها لا تبلغ به حد ادانة البورجوازية ، ويعتبرون كبلنغ وموم ولورانس وهكسلي وباريس وبروست

(1) ستشر « الاداب » في عدد قادم عرضا لرأي النقد السوفياتي بالرواية الجديدة .

وجيد وجيونو وموريك وكامو واوينيل وفيتزجرالد وبرومفيلد وهرساي وسالنجر ممثلين لهذه النزعة المشوهة .

اما ادبنا العربي الحديث ، فيلقى اهتماما متزايدا لدى المستعربين السوفيات ، وهم يعنون عناية خاصة بالانتاج المعاصر والايحاء اللغوية العربية ، و يترجمون نماذج كثيرة من آثارنا الحديثة (1) . وقد بدأوا يدركون اليوم ان هذه الترجمات يجب الا تقتصر على نتاج الادباء الشيوعيين العرب ، لان النزعة التقدمية ليست حكرا لهم . وقد حمدنا للمترجمين السوفيات اهتمامهم الجديد بترجمة كل ما يمثل الادب العربي الحديث ، ومن هؤلاء السيدة هيلينا ستيفانوفنا التي ترجمت « دعاء الكروان » للدكتور طه حسين و « اللص والكلاب » لنجيب محفوظ وترجم له الان « قصر الشوق » من ثلاثيته المعروفة .

*

وبعد ، فحسب هذه الزيارة للاتحاد السوفياتي ان تشعرونا بتقصيرنا في دراسة النتاج الادبي الضخم في تلك البلاد ، دراسة موضوعية عميقة . وان لنا نحن العرب - فوائد كثيرة نجنحها من قراءة تلك الآثار ، وان كنا نتمنى ان يتاح للادباء السوفيات حظ اكبر من الحرية للتعبير عن آرائهم ومشاعرهم . والواقع ان العهد الجديد ، بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي ، قد سجل خطوات في هذا المضمار ، نأمل ان تتبعها خطوات ، لا سيما وان السياسة السوفياتية الحالية تنزع الى الانفتاح ، والسى مزيد من التعايش الفعال .

سهيل ادريس

(1) سنعرض في عدد قادم لجهود الاستعراب في الاتحاد السوفياتي

في الاسواق :

من القاهرة الى معتقل قاسم

المسائل والسلام (شعر)

كتبان من تأليف

الاستاذ عدنان الراوي

فصول مثيرة عن الاضطهاد الذي فرضه

قصاصد قومية هادرة تفضح زيف دعاة السلام

العهد القاسمي الاسود على احرار العراق

في العراق وتصور العهد الشعبي الاحمر

في سرد جذاب يتابعه القاريء بحماسة

الذي ازالته ثورة ١٤ رمضان المجيدة

الثنى ٢٥٠ ق.ل

الثنى ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب